دخل قال له الحاجب: بس الأرض فامتنع، وقال: مثلي لا يبوس الأرض إلّا للَّه. قال: فما شككت أن دمه يسفك، فقال له الناصر: أنت فقيه تركب البريد وتروح إلى مصر وتدخل بين الملوك وتعير الدول وتهجو السلطان، فقال: حاشا للَّه، وإنما أعدائي وحسّادي نظموا ما أرادوا على لساني، وهذا الذي تكلمته أنا معي، ثم أخرج قصيدة في وزن تلك القصيدة التي نسبوها إليه نحو مائتي بيت، فأنشدها فصفح عنه. قال جَلال الدين: فلما أصبحنا رأيت ابن الوكيل يُساير السلطان في الموكب والعسكر سائر، وعظم عند السلطان. وله مصنفات منها: (كتاب الأشباه والنظائر) من أحسن المصنفات، وشرع في شرح الأحكام لعبد الحق فكتب منه ثلاثة مجلدات. قال ابن حَجَر: وكان فيه لعب ولهو. قال الصفدي: حكى لي جماعة ممن كان يعاشره في خلواته أنه كان إذا فرغ توضأ ولبس ثياباً نظافاً وصلّى ومرَّغ وجهه. انتهى. وكان جواداً. قال السجدي: كنت معه ليلة عيد فوقف له فقير فقال شيء للَّه فالتفت إليّ وقال: ما معك؟ قلت: مائتا درهم، قال: ادفعها إليه فدفعتها إليه، ثم قلت له: يا سيدي غداً العيد، وليس عندنا شيء، فقال: امض إلى القاضي كريم الدين فقل له الشيخ يهنيك بهذا العيد، ففعلت، فقال: كأن الشيخ يطلب نفقة، أعطوه ألفي درهم، فرجعت بها إليه، فقال: الحسنة بعشر أمثالها. (ومات) في رابع وعشرين ذي الحجة سنة ٧١٦ ستّ عشرة وسبعمائة.

٤٩٥

(مُحمَّدُ بن قَلاون ابن عَبْداللَّه الصَّالحي الملك الناصر ابن المَنْصُور)[1]

ولد في صفر سنة ٦٨٤ أربع وثمانين وستمائة، وشُوهد عند ولادته وكفّاه مقبوضتان ففتحتهما الداية فسال منهما دم كثير. ثم صار يقبضهما، فإذا فُتِحتا سال منهما دم كثير، فاستدل بذلك أنه يسفك دماء كثيرة. فكان الأمر كذلك، وأول ما ولي السلطنة عقب قتل أخيه الأشرف في نصف المحرم سنة (٦٩٣) وعمره تسع سنين، وغلب على الأمر كتبغا وتسلطن، وعزل صاحب الترجمة، وكان ذلك في المحرم سنة (٦٩٤) ثم خلع كتبغا في صفر سنة (٦٩٦) وكان قد جهز الناصر إلى الكرك، وحلف له أنه إذا ترعرع أعاده إلى المملكة بشرط أن يعطيه مملكة الشام استقلالاً. ولما خلع كتبغا تسلطن لاجين، واستمر سلطاناً حتى قُتل في شهر ربيع الآخر سنة (٦٩٨)

(١) ترجمته في: الدرر الكامنة: ٤/ ١٤٤؛ النجوم الزاهرة: ٨/ ٤١؛ الأعلام: ٧/ ١١؛ فوات الوفيات: ٢/ ٢٦٣.

فأحضر الناصر من الكرك وتسلطن المرة الثانية، وله يومئذٍ أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، واستقر في نيابة السلطنة سلار المتقدم ذكره، وبيبرس المتقدم أيضاً، فلم يكن للناصر معهما كلام. ولما كان في رمضان سنة (٧٠٨) أظهر الناصر أنه يريد الحجّ فتوجه إلى الكَرْك وأقام به وطرد نائب الكَرْك إلى مصر، وأعرض عن المملكة لاستبداد سلار وبيبرس دونه بالأمور، وكتب إلى الأمراء بمصر يستعفيهم من السلطنة، ويسألهم أن يتركوا له الكَرْك فوافقوه على ذلك، واتفق أنه يوم دخل الكرك انكسر الجسر فسلم هو وبعض خواصه، وسقط نحو الخمسين من أصحابه فمات منهم أربعة وخرج من بقي مصاباً. وأقام بالكَرْك يدبر أمورها ويحكم بين من يتحاكم إليه، وتسلطن مكانه بيبرس حسبما تقدم في ثالث وعشرين من شوّال من تلك السنة، واستمر إلى رجب سنة (٧٠٩) فخرج جماعة من أمراء مصر إلى الكَرْك وحملوا الناصر إلى دمشق، فتلاحق به أكثر الأمراء ونزل بالقصر، ثم توارد عليه نواب البلاد، فقصد مصر في رمضان، ففرّ بيبرس ولم يفرّ سلار بل أقام، وخرج للقاء الناصر وأظهر الطاعة، فوصل الناصر إلى القلعة واستقرّ في مملكته، وهي السلطنة الثالثة، وذلك في يوم عبد الفطر من تلك السنة. ولما استقرّ قدمه قبض على أكثر الأمراء، ولم يبق له منازع، وفتحت في أيامه بلاد كثيرة، واشترى المماليك فبالغ في ذلك حتى اشترى واحداً بنحو أربعة آلاف دينار بل أزيد كما قال ابن حَجَر. ولم ير أحد مثل سعادة ملكه وعدم حركة الأعادي عليه براً وبحراً مع طول المدة. وكان مطاعاً مهيباً عارفاً بالأمور يعظم أهل العلم ولا يقرر في المناصب الشرعية إلَّا من يكون أهلاً لها، ويتحرّى لذلك، ويبحث عنه ويبالغ. وحجّ بعد استقراره في السلطنة ثلاث حجّات. وكان عظيم المَكْر طويل الصبر على ما يكره، إذا حاول أمراً لا يسرع فيه بل يحتاط غاية الاحتياط. وكانت (وفاته) تاسع عشر ذي الحجّة سنة ٧٤١ إحدى وأربعين وسبعمائة، وتسلطن من أولاده ثمانية أنفس، وهذا من أعجب ما يُحكى.

(٤٩٦)

(الإمام المؤيد باللَّه مُحمَّد بن القَاسِم بن مُحمَّد)[١]

قد تقدم تمام نسبه في ترجمة أخيه الحَسَن. ولد سنة ٩٩٠ تسعين وتسعمائة في رمضان منها، وقيل في شعبان، وأخذ العلم عن علماء اليمن المشهورين بذاك الزمن، ومنهم والده الإمام. وبرع في عدة علوم، ودرّس وأفتى، واشتهر فضله وزهده وورعه وعفته وحسن تدبيره. ولما مات والده في التاريخ المتقدم أجمع العلماء عليه وبايعوه، وذلك في سنة (١٠٢٩). ثم كان من التأييد والنصر خروج أخيه سيف الإسلام الحَسَن

(١) ترجمته في: الأعلام: ٧/ ٦.